

المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية بالمغرب الإسلامي (300هـ/912-913م/337هـ-948م).

Mahdia, the capital of the Fatimid caliphate in the Islamic Maghreb (300 AH-912-913AD)(337AD-948AD).

خالد شارف

جامعة عمار ثلجي بالأغواط، (الجزائر)، مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية .
k.charef@lagh-univ.dz

سهام دوادي(*)

جامعة عمار ثلجي بالأغواط، (الجزائر)، مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية .
s.douadi@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2023/06/ 12 تاريخ القبول: 2025/09/ 18 تاريخ النشر: 2025/11/ 12

يتكلم هذا المقال عن بناء مدينة المهدية في المغرب الأدنى وذلك أثناء التواجد الفاطمي ببلاد المغرب الإسلامي، وهذا بهدف تتبع مراحل بناء مدينة المهدية التي تعتبر معلم من معالم التواجد الشيعي بالمنطقة وهذه الظاهرة ليست بالجديدة في تاريخ الدول الناشئة، وفي تاريخ المغرب أمثلة كثيرة على ذلك كقيام عقبة بن نافع ببناء عاصمته القيروان، حتى تكون معسكر متقدم يسهل عليه عمليات الفتح والإستقرار بالإضافة إلى إقامة مدينة تونس على يد حسان بن النعمان وغيرها من النماذج ببلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وفي مقالنا هذا سوف نحاول التعرف على الأسباب والدوافع التي كانت وراء إقامة المهدية وإتحاذاها عاصمة جديدة بدل من رقادة بالإضافة إلى التعرف بدقة عن تخطيطها وأهم المرافق التي كانت بها .

الملخص

الكلمات الدالة الدولة الفاطمية؛ المهدية؛ عبيد الله؛ المغرب الإسلامي؛ كتابة.

Abstrac:

This article talks about the construction of the city of mahdia in the lowest Maghreb, during the fatimid presence in the Islamic Maghreb ,and this is with the aim of tracing the stages of building mahdia ,which is considered a landmark of the Shiite existence in the region ,and this phenomenon is not new in the history of emerging countries in Islamic history ,there are many examples ,such as uqba ben nafaah building his capital ,kairouan ,so that it would be an advanced camp that facilitated the operations of conquest and stability, in addition to the establishment of the city of tunis by Hassan and other examples in the countries of the

* المؤلف المرسل.

Islamic Maghreb in the middle ages .

Keywords: Fatimid stat; Mahdia; Ubaid allah; Islamic Maghreb; kutama .

1. مقدمة : يعد تشييد المدن الإسلامية من أهم الصفات البارزة في التاريخ الإسلامي والتي تعتبر شاهد على مراحل تاريخية هامة خاصة لما تضمنت الوثائق التاريخية، ولقد شهدت بلاد المغرب الإسلامي قيام مجموعة من الدول على مر تاريخها السياسي ومن بينها الدولة الفاطمية (296-362هـ/909-970م)، والتي تمكنت من فرض وجودها بالمنطقة وإقامة أول خلافة شيعية، والتي كانت المهدية عاصمة لها وبذلك أصبحت تنافس الخلافة العباسية السنية بالشرق الإسلامي على لقب الخلافة، وهذا ما يستوجب منا طرح الإشكالية التالية:

ماهي العوامل والدوافع التي أدت إلى بناء مدينة المهدية ببلاد المغرب؟ و التي تفرعت عنها مجموعة من الاشكاليات التالية: ماهي أسباب التواجد الفاطمي بالمنطقة؟ وماهي مراحل بناء مدينة المهدية واختيار موضعها والتعرف على منشأها؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا المنهج التاريخي السردى والوصفي الذي يهتم بالظاهرة التاريخية ووصفها من خلال ما ورد في المصادر التاريخية والجغرافية والرحلات بالإضافة إلى الإستعانة بالمنهج التحليلي الذي يبحث في أسباب الظاهرة التاريخية و تحليلها تحليلًا تاريخيًا.

والهدف من هذه الدراسة أبرز الدوافع والأسباب التي كانت وراء بناء مدينة المهدية وأهميتها لدى الفاطميين، بالإضافة إلى التعرف أكثر عن تخطيطها، وما عرفته من مراكز سواء في الجانب المدني أو الديني وغيرها من المجالات.

2. ظهور الفاطميين في المغرب الإسلامي:

مزال الشيعة منذ مقتل علي بن أبي طالب (35-40هـ/656-661م) يدعون إلى إمام معصوم ليتولى إمامة المسلمين، ولأجل ذلك كانوا يقومون بإرسال الدعاة إلى الأمصار لإستقطاب الأنصار¹، ولقد كانت بلاد المغرب من بين المناطق التي شهدت الدعوة لآل البيت، حيث يقول ابن الأثير: "وأوفدوا إلى المغرب رجلين: أحدهما الحلواني والآخر أبو سفيان وقالوا لهما إن المغرب أرض بور فاذهبا فأحرثا حتى يجئ صاحب البذر فسارا ونزل أحدهما بأرض كتامة فمالق قلوب أهل تلك النواحي إليهما وحملوا إليهما الأموال والتحف، فأقاما سنين كثيرة وماتا"² وبالفعل تمكن كل من الحلواني وأبي سفيان من نشر الدعوة وخلق القابلية التي كانت من بين الأسباب في نجاح الداعي أبي عبد الله الشيعي (280-298هـ/893-911م) من بعدهما، حيث كان لفكرة المهدي أثر في بلاد سادها الجهل وملاها تعسف الحكام السنيين، وهذا ما استغله الشيعة إلى جانب الأحاديث الكثيرة في المغرب بقرب ظهور المهدي وأن الشمس ستشرق من مغربها بمعنى

قيام دولة علوية بالمغرب³، وبالفعل أثرت جهود أبي عبد الله الشيعي و ظهر عبيد الله المهدي (297-322هـ/909-934م) بسجل ماسة وأقام فيها أربعين يوما بعد تحريره، ثم توجه إلى إفريقية بعد جلبه الأموال من إيكجان والتوجه لرقادة في العشر الأخير من ربيع الآخر من سنة سبع 297هـ-910م، فلما وصل إلى رقادة حاضرة بني الأغلب تلقاه أهلها وأهل القيروان والداعي أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه فسلموا عليه فرد ردا جميلا وأمرهم بالانصراف، ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وجلس مع رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف و الشدة ودعواهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه ومن أبي حبس فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس وهم قلة حيث قتل الكثير من المعارضين لهم⁴ فلما تربع عبيد الله المهدي على العرش، شرع بنفسه في الإشراف على المهام التي كانت تنتظره وحرص على إعادة تنظيم المصالح الإدارية، بالإضافة إلى إعتماده على أنصاره من كتامة إلى جانب العناصر العربية التي كانت في خدمة بني الأغلب لذلك كان عليه أن يتخذ من أجل ذلك موقفاً متساهلاً، حيث تركهم في مناصبهم السابقة كل هذه الإجراءات أكسبت الإدارة الفاطمية الناشئة حافزا من الاستقرار والاستمرارية⁵.

ولعل من بين أبرز المهام التي قام بها الخليفة الجديد هي تشييد عاصمته المهدية التي تعتبر أول عمل معماري تقدم عليه هذه الدولة، وهو العرف السائد في تاريخ الدول الناشئة، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك فقد أقام إمبراطور الروماني قسطنطين عاصمته القسطنطينية بعيداً عن شعب السانتو بأثينا، وغيرها من أمثلة الكثيرة كمدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية، والقطائع عاصمة الدولة الطولونية⁶.

1.2 تسمية المهدية: يعرفها صاحب كتاب معجم البلدان "بالفتح ثم السكون في موضعين : إحداهما بإفريقية و الأخرى اختطها عبد المؤمن بن علي قرب سلا، فأما المهدية في اشتقاقه أربعة أوجه أحدها أن يكون المهدي بفتح ميمه ويعني أنه هو مهتد في نفسه لا أنه هداه غيره ولو كان ذلك لكان المهدي بضم الميم وليس الضم والفتح للتعدي، و يقول :هداه بمديه في الدين والمكان وان كان اسم رجل لأنك أن قلت مضرب ومشرب إنما المراد موضع الضرب والشرب"⁷.

أسباب تسميتها بالمهدية: نسبة إلى المهدي، وفي المعتقد الشيعي أنه هو الذي سوف يظهر آخر الزمان وهو من نسل فاطمة بنت الرسول ﷺ وزوجها علي بن أبي طالب⁸.

2.2 موقع مدينة المهدية:

خرج المهدي بنفسه في عام 300هـ/912-913م إلى تونس قرطاجنة بحثا عن موضع يستوفي الشروط⁹، ليكون مقر مملكته وقد جاء إختياره على مدينة المهدية¹⁰، كونها تعد أحسن وأحصن موضع وهي عبارة عن جزيرة متصلة بالبر على هيئة كف متصل بزند فبناها وجعل منها عاصمة له¹¹، وانتقال عبيد الله من رقادة

والقيروان إليها¹²، وهي تقع بين سوسة من الشمال ومدينة صفاقس من الجنوب¹³، أما من الناحية الشرقية فتحدها تونس في مكان آمن داخل الأراضي الشرقية لتونس¹⁴.

3. أسباب ودوافع اختيار موقع المهدية :

3.1 الأسباب السياسية والمذهبية : من غير المعقول أن يتخذ عبيد الله المهدي من رقادة¹⁵ أو حتى من القيروان¹⁶ عاصمة له نظراً لما تكنه من إخلاص لبني الأغلب المعادين للدولة الفاطمية، ورفضه الإقامة في فج الأختيار بإيكجان، التي اتخذها أبو عبد الله الداعي مقر للدعوة وبالإضافة إلى كونها معزولة وليس من السهل فيها الاتصال بسائر أرجاء الدولة على العكس من المهدية فهي مؤسسة جديدة خالصة للفاطميين وجاء بناؤها وفق المتطلبات السياسية والمذهبية، التي تخدم مصالحهم وتطاعتهم¹⁷. فرقادة لم تكن تصلح بسبب موقعها على سهل فسيح يجعل منها عرضة للغزو ونفس الأمر بالنسبة للقيروان التي ضاعت في العديد من المرات¹⁸، بالإضافة إلى أن الفاطميين وجدوا صعوبات في فرض نفوذهم المذهبي، حيث واجه عبيد الله مقاطعة سلبية، وإنكاراً صامتاً جابه به أهل إفريقية و وقف علماء المذهب السني ضد المد الشيعي وتبعهم في ذلك العامة من الشعب، مما شكل خطورة وتهديداً على دولته الناشئة، لذلك كان من الطبيعي أن يبحث الفاطميين على عصبية يعتمدون عليها فلم تستقر دعائم نظامهم هناك إلا بقوة أنصارهم الكنايين الذين أشاد الخليفة بفضلهم على الدعوة¹⁹، كما قام الخليفة الفاطمي عبيد الله الشيعي باستعمال القوة خاصة ضد أصحاب المذهب المالكي من فقهاء وعلماء و القضاة وغيرهم وقام بتكوين ديوان الكشف في 298هـ - 910م، وذلك من أجل كشف المخالفين لهم ولمذهبهم حتى يتمكن من نشر مذهبه، بالإضافة إلى إقامة مدارس الدعوة لإستقطاب أكبر عدد من الجماهير أي أنه جمع بين أسلوب الترغيب والترهيب في سبيل نشر دعوته ومعتقده²⁰. رغم هذه السياسية والبطش بأنصار المالكية فإنها لم تأتي بالنتائج المرجوة بل على العكس أدت إلى سخط وغضب ورفض المذهب الشيعي رفض قاطع حتى الذين اعتنقوه كان لأسباب مختلفة سواء لتقلد مناصب إدارية أو خوفاً من بطش السلطة الجديدة²¹، وقد أدرك عبيد الله خطورة ذلك فمن غير المعقول أن يقيم دار ملكه في مناطق معارضة سياسياً ومذهبياً للدولة الفاطمية وهذا ما فعله قبله السفاح (132-136هـ/750-754م) والمنصور (136-158هـ/754-775م) عن اتخاذ دمشق حاضرة الخلافة العباسية كونها خاصة بالأمويين وأنصارهم²²، كما وأنه قد كان لعبيد الله علم حدثاني بقيام قائم على ذريته مما استدعى منه البحث عن موضع حصين²³.

3.2 الدوافع الجغرافية والعسكرية و النفسية:

يظهر بعد النظر لدى عبيد الله المهدي، وذلك من خلال إختياره موضع مدينته حيث كانت تتوسط أجزاء دولته لتكون حصناً يعتصم به وأنصاره، وفي نفس الوقت يوجه منها هجماته على الخارجين عليه²⁴. كما

يتضح في أن إختيار موضع المدينة على الساحل كان توجه غير مرغوب فيه في تاريخ الدولة الإسلامية في الفترة الأولى ، ولا أدل على ذلك من اختيار مواضع الأمصار كالبصرة والكوفة والفسطاط و القيروان بسبب غياب البحرية القادرة على مجابهة أي عدوان ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للجيش الإسلامي التي ألقت الصحراء، لكن عبيد الله استطاع أن يستفيد بفضل القوة التي ملكها من خلال استغلال الموقع الذي يعتبر حصن طبيعي، حيث أن موضع المدينة أخذ شكل لسان ممتد في البحر ويرتبط بالبر من الجهة الغربية ، والميزة الثانية هي سهولة ارتباط هذه المدينة بالطرق البرية بالإضافة إلى الطرق البرية وهي ميزة ليست في المدن الداخلية ولاشك أن الاتصال البحري في المدينة وموانئ البحر الأبيض المتوسط أكسبها مقومات اقتصادية وحربية ²⁵ ، أما على الصعيد النفسي فيذكر ياقوت الحموي (ت626هـ-1228م) أن المهدي بينما كان يتأمل في موضع المهديّة فوجد فيها راهبا في مغارة فقال له: بما يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمى جزيرة الخلفاء فأعجبه هذا الاسم فبناه وجعلها دار مملكته ، وهكذا تحمس عبيد الله خير من اسم جزيرة الخلفاء و ارتاحت نفسيته وقرر اتخاذها موضعا بيني فيها عاصمة ملكه ²⁶ ، كما يرى بعض من المؤرخين أن سبب تأسيس المهديّة كان نتيجة إنقلاب الزعماء الكتاميين الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة وذلك بتحريض من أبي العباس و أخيه أبي عبد الله الشيعي ²⁷ ، كل هذه العوامل والدوافع جعلت من عبيد الله يحرص بنفسه على اختيار موضع المدينة وهو أمر يكشف عن مدى حرصه على هذه المهمة دون الإعتماد على أحد من أعوانه أو المتخصصين من رجاله بذلك كما فعله غيره من الخلفاء ، كونه كان حريصاً على تأمين ذريته وأتباعه في المرحلة الأولى من قيام دولته التي نشأت في قلب الإمتداد السني ²⁸

4. البدء في عملية البناء:

هناك اختلاف بين المؤرخين في السنة التي وضع فيها عبيد الله أساس المهديّة فيرى ابن خلدون (ت808_1405م) أنه كان في نهاية سنة 302هـ-915م و يوافقه المقرئ (ت854هـ-1441م) في هذا التاريخ ، غير أن ما قاله صاحب البيان المغرب هو الأقرب إلى الصواب لأنه انتهى من بنائها في سنة 305هـ-915م ، بمعنى أنه بناها في عامين أو أقل وهذه مدة غير كافية لبناء مدينة عريقة كالمهديّة هذا من جانب ومن جانب آخر فإن بناء المهديّة سنة 300هـ-912/913م يكاد يتفق مع ما قاله المؤرخون بأن المهدي بناها خوفا من جماعة أبي عبد الله الداعي وأخيه أبي العباس فإن صح هذا فما الأسباب التي جعلت عبيد الله يؤجل عملية البناء من أواخر سنة 298هـ-910م إلى سنة 303هـ-916م ؟ هذا ما يدعم صحة ما ذهب إليه بعض المؤرخين على أن أساس المهديّة قد وضع سنة 300هـ-912/913م ²⁹ ، وقال الحموي أن الشروع في اختطاطها خلون من ذي القعدة سنة 303هـ-916م ³⁰ ، ويقول التجاني في رحلته رأيت مدينة جليلا قدرها شهر في قواعد الإسلام ذكرها ، وهي بناء عبيد الله المهدي وكان بنائها لها خمس

خلت من ذي القعدة سنة 300هـ/912-913م³¹، "فاختطها بطالع الأسد لأنه برج ثابت ولذلك ثبتت، ولأنه بيت الشمس الذي هو دليل الملوك، ولذلك كان الملك فيها. وعاد بعد استيظانه القيروان إليها بإذن الله عز وجل وعلى رأى أهل الصناعات النجومية، وفي وضعها برج الأسد"³²، وقد بذل عبيد الله المهدي الكثير من المال والجهد في سبيل تحصين المدينة بأبواب حديد سمكة وعالية وسور قوي مرتفع من الحجر محاط بأبراج وبوابات ثقيلة وبنى فيها تسع أطنان من الغلال³³، وقد أشرف عبيد الله المهدي شخصيا على عملية بناء المهدية حيث كان يقف على فرسه، ويأمر الصناع بما يصنعون ومباشرة العمل في العمارة وبذلك يساعد في سرعة البناء، حيث إن العمل المعماري يتطلب لانهاء جهازاً إدارياً يباشر تنظيم العمل والعمال من حفارين وحجارين وبنائين ونجارين ورمحين ومهندسين وغيرهم، وتشير المصادر أحيانا إلى أن أسماء هؤلاء كانت تنقش أحيانا على ما يباشرونه من عمائر³⁴، وكان أول ما ابني من هذه المدينة السور الغربي فيها الذي يحتوي على أبواب ولما أتم بناء السور هنأه أولياؤه³⁵، وبعد بناء السور أمر راميا برمي القوس إلى جهة المغرب فرمى سهمه فاتتهى إلى موضع المصلى حينها قال: إلى موضع هذا يصل صاحب الحمار وهو يقصد مخلد بن كيداد (323-336هـ/934-947)³⁶.

4.1. تخطيط مدينة المهدية :

السور الغربي: كما تمت الإشارة إليه من قبل أن أول ما ابني في هذه المدينة هو سورها الغربي حيث لعبت الأسوار دور هام في الدفاع عن المهدية كمدينة بغداد وسمك هذه الأسوار، وهو نفسه الذي أنجز في القاهرة ولاشك أن سمك الأسوار بهذا القياس يرتبط بوسائل خط دفاع من الرماة الذين يقومون بالدفاع من سطح السور الذي يمثل خط دفاع أعلى، وكان السور يشمل على خط دفاعي في قلبه وذلك حسب تخطيط السور، كما يساهم سمك السور في مقاومة خاصة من الجهة الغربية البرية وهي أضعف جهة من ناحية التحصين الطبيعي، إذ حرص على تحصينها تحصيناً قوياً ظهر في سماكة السور المبني بالحجارة ودعمها أيضا بالروابط الرخامية³⁷، وكان قد جعل لمدينته باب حديد لا خشب و وزن كل باب ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراكل مسمار من مساميره ستة أرتال³⁸، وأن أسوار المدينة كانت مدعمة بستة عشر برجاً ثمانية منها ترجع إلى إنشاء المدينة والثمانية الأخرى ترجع إلى فترات متأخرة³⁹، وهكذا يتعذر الدخول إليها حيث أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات وقوة تحصينها من الجهة الغربية، بالإضافة إلى ذلك أن عبيد الله المهدي بنى البيوت من الصخر إمعانا في تقويتها⁴⁰.

4.2. المسجد :

كان اتساع المهدية في أول البناء من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم فاستصغرها عبيد الله المهدي فردم من البحر مقدارها وأدخله في مدينته والجامع الأعظم الآن من جملة ما ردم من البحر⁴¹، ولعل ما دفعه لذلك هو

حصانة المهدي الطبيعية المحاطة بالماء من ثلاث جهات ، كما يعد تأسيس المسجد من الضروريات الأساسية في الإسلام كونه مقر ديني وسياسي والذي يلعب دور في تأكيد السلطة السياسية لكيانات الناشئة، ولذلك حرص الفاطميون عليه لغرض الدعوة السياسية والمذهبية وذلك لأن الخطبة تعد من شارات الخلافة⁴²، حيث يمثل الجامع مركز ترابط بين المسلمين من أداء الصلاة وتبادل الآراء والتواصل مع رؤسائهم فالمسجد ضرورة سياسية ودينية وإجتماعية لكل فرد وجماعة مسلمة⁴³، أما فيما يخص الوصف المعماري لهذا الجامع فهو يشغل على مساحة مستطيلة، ويؤدي إلى مدخل تذكاري عبارة عن برجين يبرزان عن سمت الحائط في الواجهة الشمالية الغربية و أبعاد كل برج منها ثمانية ونصف ضرب ثلاثة متر، أما عن الارتفاع فهي تسعة أمتار وبين البرجين يوجد مدخل معقود بعقد على شكل حدوة فرس باتساع أربعة أمتار ويؤدي الباب إلى ذكراه مسقوفة بقبو طولي ينتهي بفتحة باب معقودة بعقد مستقيم ، يعلوه عقد قوسي عاتق بينهما نفيس ويؤدي الباب إلى الصحن ومنه إلى بيت الصلاة، واستخدام العقد المستقيم يعلوه عاتق بينهما نفيس ، وحتى الصحن فهو على شكل مستطيل أبعاده تسعة وأربعين ضرب خمسة وثلاثين متر، ومن الناحية الغربية ظلة حديثة مكونة من تسعة عقود حدوة فرس محمولة على دعائم حيث تغطيها أقبية متقاطعة ، وفي الناحية الجنوبية الشرقية ظلة القبلة تتقدمها سقيفة مستحدثة مكونة من خمسة عشر عقدا محمولة على أعمدة ، وتؤدي هذه السقيفة إلى الظلة القبلة في شكل مساحة مستطيلة أبعادها ثلاثين ضرب ثلاثة وعشرين متر ، وتتكون من تسعة بلاطات متعامدة على جدار القبلة تفصل بينها ثمانى بأكات من عقود حدوة الفرس ويبلغ عددها في كل منها سبعة عقود محملة على ستة أعمدة⁴⁴

4.3 المرافق المائية بالمهدية:

يعتبر الماء من العوامل الهامة في قيام أي حضارة لذلك وجب التحوط من خطورة السيطرة على مصادر المياه من قبل الأعداء أثناء أي خطر قد يتعرض له المدينة، وقد أدرك عبيد الله المهدي خطورة ذلك فخطط لتجنب مثل هذا الوضع بإنشاء العديد من الصهاريج و الماجل و الجباب بمدينته لتخزين أكبر كمية ممكنة من الماء تكفي المدينة وقت الحصار ولعل ما يفسر ذلك كثرة الماجل والصهاريج⁴⁵ ، وهذا ما ذكره الحموي بأن عبيد الله الشيعي جعل في المهديّة من الصهاريج العظام حيث أن أهل تلك النواحي يسمونها مياجل ثلثمائة وستين موجلا، غير ما يجري إليها من القناة التي فيها و الماء الجاري في المهديّة في صهريج داخل المدينة عند جامعها ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب يصب في محبس يجري في تلك القناة⁴⁶ .

4.4 الحمامات:

كما أقام عبيد الله المهدي الحمامات في مدينته الجديدة لأهميتها ، وما يميزها التصميم الذي يتيح للمستحم التنقل تدريجيًا من الحر إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأي أذى وكان يتم تسخين الحمام عن طريق إيقاذ النار

تحت أرضيه ، كما أن الحمام كان يحتوي على أنابيب للماء البارد والساخن بالجدران ، ولقد تكلم الإدريسي عن الحمامات في مدينة المهدية ووصفها بالجملة⁴⁷.

4.5 المرسى:

لقد نقر عبيد الله الصخر الصلد لأجل بناء المرسى ، وهذا لكون الصخر الطبيعي يتميز بمقاومته الكبيرة للمياه و الأمواج أكثر من أي بناء ، وترجع هذه الفكرة للمصريين القدماء ، كما أنشأ عبيد الله على طريقي المرسى برجان فجعل بينهما سلسلة حديدية⁴⁸ ، وهي بذلك تحول دون دخول السفن الغريبة إلى الميناء⁴⁹ ، كما تعد تحصينا للمرسى⁵⁰ ، لئلا تتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها⁵¹ ، بالإضافة إلى منشأتين مهمتين لهما علاقة بالموقع الساحلي للمدينة ، وقد اهتمام المهدي وخلفائه بتأسيس قوة بحرية لعبت دور مهم في حروبهم وانتصارهم ، إلى جانب الدور الاقتصادي المتصل بنقل السلع والبضائع والركاب بين الموانئ المطلة على الحوض الأبيض المتوسط⁵².

4.6 دار الصناعة والقصور:

وتعد دار الصناعة من عجائب الدنيا ، حيث شرع في حفر الأهرام بداخل المدينة وبني الجباب والمصانع واختزن الأهرام بالطعام وملا الجباب بالماء وأمر بحفظها ولم تفتح إلا أيام أبي يزيد ، كما بنى القصور كقصر الكبير المعروف الذي يحتوي على طيقان الذهب وبني ابنه القاسم بإزائه قصره المعروف به أيضا وبينهما فسحة⁵³ ، وهذا ما ذكره ياقوت الحموي بأن عبيد الله المهدي بني بالمهدية قصورا عالية وهذه الرواية تجسد اهتمام الفاطميين بعمارة القصور الضخمة و الفخمة في إطار توظيف العمارة لأغراض دعائية سياسية تعلن عن قيام دولة فتية وخلافة ثانية لتبسط نفوذها على العالم الإسلامي السني⁵⁴.

5. وصف المهدية:

يتكلم عنها صاحب صورة الأرض ويصفها بحسنة السور والعمارة وبن أسوارها حصينة من الحجارة وليس لها مثيل وبها الكثير من القصور نظيفة المنازل والدور ، حسنة الحمامات والخانات خصبة رفهة الفواكه والغلات طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر⁵⁵.

أما الشريف الإدريسي (ت560هـ - 1165م) في وصف لها حين تأليف كتابه هذا أنها مدينتين الأولى المهدية والتي يسكنها السلطان وجنوده وبها قصره الحسن البناء العجيب الإتقان الإرتقاء الذي يحتوي على طيقان من الذهب مما يفخر به الملوك قبل أن يفتحها الملك روجر ، أما عن المدينة الثانية المتمثلة في مدينة زويلة⁵⁶.

ويصفها صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار بقوله : وللمهدية مرسى للمراكب من عجائب العالم⁵⁷.

أما القاضي النعمان (ت363هـ - 964م) فيذكر المهدية المعروفة في الكتب بالبيضاء التي قيل أن الدجال لا يصلها ولا يدخلها فكانت كما ذكرته الروايات من أعجب الآثار فقد بناها المهدي بالحجارة وبوها بأبواب

من حديد المحصن وانتقل إليها في شوال 308هـ - 920م، وسكنها وزاد إليها من البحر... وكان إذا نظر إلى تحصينها وأعجب بها الناس يقول: كل هذا عدة لساعة واحدة من نهار ويقصد بذلك صاحب الحمار⁵⁸. ولما فرع من بناء المهديّة وإحكام ذلك قال: اليوم أمنت على الفاطميات أي بناته ورحل إليها ثم عمر فيها الدكاكين، ورتب فيها أبواب المهن كل طائفة في سوق حيث قاموا بنقل أموالهم، فلما أستقام ذلك أمر ببناء مدينة ثانية إلى جانب المهديّة، حيث جعل بينهما قدر طول ميدان وأفردها بسور و أبواب وحفظة، وسمّاها زويلة وأسكن أبواب الدكاكين من البزازين وغيرهم بجرهم من أهاليهم، وقال إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم وذلك أن أموالهم عندي و أهليهم هناك فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي، وأن أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك وقد بنيت بيني وبينهم سور وأبواب فأنا آمن منهم لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبينهم وبين حرمهم نهاراً⁵⁹، وعند انتقال عبيد الله المهدي إلى عاصمته المهديّة قال شعراء إفريقية:

ليهنك أيها الملك الهمام	قدوم فيه للدهر ابتسام
حططت الرحال في بلد كريم	رعته لك الملائكة الكرام
لئن عظم الحرام و مايليه	كما عظمت مشاهد العظام
لقد عظمت بأرض الغرب دار	بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهديّة الحرم الموقى	كما بتهمّة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه	ثرى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحي	لنا بعراض قصركم التمام
لئن شاب الزمان وشاب ملك	دعائمه اذا عجمت حطام
لملكك أيها المهدي ملك	غلام و الزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم	فكلكم لها أبدا إمام ⁶¹

6. المكانة الروحية للمهديّة:

وتحتل مدينة المهديّة مكانة هامة عند الشيعة كونها تعتبر دار من دور الهجرة كونها تضم إمامين إماماً مستودعاً هو عبيدالله المهدي وإماماً مستقراً هو أبو القاسم القائم (322- 334هـ/ 934- 945م)، وبما أن المهدي انتقل إليها بعد الإنتهاء من عملية البناء وجعلها دار هجرة الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وبكفي عبيدالله المهدي أنها استطاعت أن تصد جحافل أبي يزيد وأنها حققت بذلك نبوءة المهدي، والفرق بين المهديّة وغيرها من دور الهجرة الإسماعيلية أن هذه المدينة لم تقتصر على الإسماعيلية وحدهم في حين نجد دار الهجرة عند القرامطة والحوشب لاتضم أحد من غيرهم، كما أن تسميتها المهديّة لم يقتصر على الإنتساب إلى عبيد

الله المهدي بل أنها مدينة الأئمة المهديين من الخلفاء الفاطميين لأن كل من هؤلاء إمام المهدي عند الاسماعيلية⁶².

من خلال ماسبق ذكره عن وصف مدخل المدينة يتضح أن أبوابها كانت ذات تخطيط حربي مميز في العمارة العربية الإسلامية ، إلى جانب حماية البوابة ببرج المدخل فإن بقية تخطيط الممرات وأسلوب التنفيذ كان غرضه الدفاع والحماية وفق تقدير صحيح وأسلوب الهجوم والدفاع في الفترة الوسيطة و أدواتها وأسلحتها ، ولقد صنعت الأبواب من الحديد لمقاومة الحرائق في حال تعرضها لأي عدوان خارجي وصدد هجمات المناجيق⁶³، وما يميز آثار مدينة المهدية المتبقية أن الكثير من عناصر عمارتها قد انتقلت إلى مدينة القاهرة ، ويظهر ذلك من خلال سلك جدران الأسوار المبنية بالطوب اللبن⁶⁴.

خاتمة:

يتضح لنا من خلال مقالنا هذا بأن عبيدالله حرص على إقامة عاصمة جديدة له تمكنه من مواصلة مخططه، ولقد وفق لحد كبير في اختياره كون المهدية محصنة طبيعيا من ثلاثة جهات بالإضافة إلى تحصيناتها القديمة إلى جانب جهود عبيدالله في تقويتها بإنشاء السور ودعم التحصينات البرية و البحرية التي كانت موجودة بالمرسى وتأمين الجهة الغربية نتيجة الظروف التي فرضتها الأوضاع السياسية والعسكرية .

الصراع المذهبي السني الشيعي بالمنطقة كان له صدى كبير في إقامة المهدية ، كما أن عبيدالله الشيعي لم يركز فقط على الجوانب السياسية والعسكرية فحسب بل ركز على الجوانب الاقتصادية من خلال إقامة دار السك والصناعة بالمهدية وبالفعل استطاع أن يجعل من مدينته عاصمة سياسية واقتصادية ، كما حرص على الموارد المائية في ظل غياب مورد طبيعي داخل المدينة ، وهذا مامكن خليفته فيما بعد من مقاومة الحصارالذي فرضه مخلد بن كيداد ، الأمر الذي يؤكد على بعد النظر لدى عبيدالله وأخذ التدابير اللازمة ، وفق أهداف واضحة ومدروسة .

ما يميز العمارة الفاطمية ببلاد المغرب هو طابعها العسكري أكثر من الطابع المدني ، وهذا بحكم الظروف التي عاشها الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، أما عن العمارة الدينية فلقد كانت لغرض الدعاية المذهبية لنشر مذهبهم والتوسع على حساب العالم الإسلامي كونها ترى بأنها الوصاية على المسلمين لذلك اتخذت شارات وعلامات للحكم حتى تدعم شرعيتها ومن بين هذه العلامات بناء المهدية حاضرة الخلافة الفاطمية لرد على الخلافة العباسية ومن بعدها الخلافة الأموية بالأندلس.

المراجع:

- ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (ج 1). في مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية. تونس. (د.ط.). (1987).

- ابن حماد أبو عبدالله مُجَّد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تحقيق ودراسة: التهامي نقرة . عبد الحليم عويس. دار الصحوة. القاهرة .
- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب.(ج1)، مكتبة صادر. بيروت .(د.ط.). (د.ت.).
- أبو مُجَّد عبد الله التجاني: رحلة التجاني. (قدم له :حسن حسني عبد الوهاب) . الدار العربية للكتاب. ليبيا /تونس.(د.ط.). (1981).
- أبي العباس بن عذارى : البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب (ج 1). (تح :بشار عواد معروف و محمود بشار عواد) دار الغرب الاسلامي. تونس. (د.ط.). (1434هـ_2013م).
- أبي القاسم النصيبي ابن حوقل : صورة الارض. منشورات دارمكتبة الحياة . بيروت .(د.ط.). (1992).
- الشريف الادريسي: وصف افريقية الشمالية و الصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. (هنري بريس) . مكتبة معهد الدروس العليا الاسلامية بالجزائر. الجزائر. (د.ط.). (1957).
- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. (تح:فرحات الدشاوي) الشركة التونسية للتوزيع ، ديوان المطبوعات الجامعية. تونس، الجزائر.(ط2). (1986).
- المراكشي: الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر و بلاد المغرب: من كتاب القرن السادس الهجري(12م). (سعد زغلول عبد الحميد، المحرر) دار النشر المغربية. الدار البيضاء.(د.ط.). (1985).
- يعقوبي: البلدان ،المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية.المغرب.(د.ط)، 1918.
- أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة.(ط1). (1992م).
- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (ج1). المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية. القاهرة. (د.ط). (1996م).
- حسن ابراهيم حسن، طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. (د.ط). (1947).

- حسن حسيني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس (ج 3). تونس: دار الكتب العربية الشرقية. تونس. (د.ط.). (د.ت.).
- حسين مؤنس: المساجد. عالم المعرفة. الكويت. (د. ط.). (يناير 1981).
- صلاح أحمد البهنسي: عمارة المغرب والاندلس في العصر الاسلامي. (مراجعة: أحمد عبد الرزاق أحمد) جامعة عين شمس. القاهرة. (د.ط.). (د. ت.).
- عبد الحكيم العقيقي: موسوعة 1000 مدينة اسلامية (ج 1). أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. (د.ط.). (1421هـ_2000م).
- عبد الحميد حسين حمودة: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية. الدار الثقافية للنشر. القاهرة. (ط1). 2007م.
- عز الدين أبي الحسن ابن الاثير: الكامل في التاريخ (ج 6). (تحقيق: حمد يوسف الدقاق). دار الكتب العلمية. بيروت. (د.ط.). (1987).
- فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب 296_365هـ/909_975م التاريخ السياسي والمؤسسات. (ترجمة: حمادي الساحلي). دار الغرب الاسلامي. بيروت. (ط1). (1994).
- محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية. دار الفكر العربي. مصر. (د.ط.). (د.ت.).
- محمد سهيل طقوش: (1428هـ_2007م). تاريخ الفاطميين في شمالي افريقية ومصر و بلاد الشام 297_567هـ/910_1171م (ط2). (2007م). دار النفائس. بيروت.
- محمد صالح مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. (د.ط.). (1983م).
- محمد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية_المدنية_الدينية (ج 1). دار القاهرة. القاهرة. (د.ط.). (2006).
- محمد عبد الستار عثمان: العمارة العباسية الفاطمية. (د.ط.). (2003).
- مصطفى أبو النصر الشلبي: (2002). صحيح أشراف الساعة (ج 3). دار ابن حزم. بيروت. (د.ط.). (2002).
- ياقوت الحموي: معجم البلدان. (م3) (م5). دار صادر. بيروت. (د.ط.). (1977م).
- الهوامش:

1. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب. مكتبة صادر. بيروت. (د.ط.). (د.ت.). ج 1. ص 166.

2. المقريري تقي الدين: أنعاز الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة. (ط2). 1996م. ج1. ص41.
3. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. 1366هـ-1947م. ص 116.
4. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. راجعه وصححه الدقاق محمد يوسف. دار الكتاب العلمية. بيروت. (د.ت). 1987م. ج6. ص598.
5. فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب 296-365هـ/909-975م التاريخ السياسي والمؤسسات. تر حمادي الساحلي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. (د.ت). 1994. ص184.
6. محمد عبد الستار عثمان: العمارة العباسية والفاطمية. (د.ط). 2003. ص146.
7. ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر. بيروت. (د.ط). 1977م. ص5. 229، 230.
8. مصطفى أبو النصر الشلبي: صحيح أشراط الساعة. دار ابن حزم. بيروت. (د.ط). 2002. ص28.
9. ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. في مطبعة الدولة التونسية بمضرتها المحمية. تونس. (د.ط). 1987. ج1. ص55.
10. أبي العباس بن عذاري: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. حققه وضبط نصه وعلق عليه: معروف بشار عواد، عواد محمود بشار. دار الغرب الإسلامي. بيروت. (د.ط). 2013م. ج1. ص192.
11. ابن الأثير: المصدر السابق. ص489.
12. ابن حوقل: صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. (د.ط). 1992. ص73.
13. محمد عبد الستار عثمان: العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص148.
14. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة 1000 مدينة إسلامية. أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. (د.ط). 1421هـ-2000م. ص472.
15. رقادة: بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعا وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسima وأرق تربة منها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، (م3)، ص55.
16. القيروان: اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ستين في خلافة معاوية، اليعقوبي: البلدان، المكتبة المرتضية ومطبعتها الحيدرية، المغرب، 1918، ص155.

17. مُجَد سَهيل طَقُوش : تاريخ الفاطميين في شمالي افريقية ومصر وبلاد الشام 297-567هـ/910-1171م. دار النفائس . بيروت.(ط.2).2007م. ص.91.
18. عبد الحميد حسين حمودة: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية . الدار الثقافية للنشر. القاهرة.(ط.1). 1428هـ-2007م. ص.323، 324.
19. ايمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد . الدار المصرية اللبنانية . القاهرة.(ط.1).1992م. ص.56-57.
20. مُجَد سَهيل طَقُوش: المرجع السابق. ص.81، 82.
21. مُجَد صالح مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر(د.ط). 1983. ص.133.
22. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المرجع السابق. ص.204، 205.
23. التجاني: رحلة التجاني. قدم له حسن حسني عبدالوهاب . الدار العربية للكتاب . ليبيا ، تونس.(د.ط). 1981. ص.321.
24. مُجَد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية . دار الفكر العربي . مصر. ص.28.
25. مُجَد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص.147.
26. ياقوت الحموي : المصدر السابق. م.5. ص.230، 231.
27. مُجَد سَهيل طَقُوش : المرجع السابق. ص.92.
28. مُجَد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص.146، 147.
29. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المرجع السابق. ص.207.
30. ياقوت الحموي : المصدر السابق . م.5. ص.231.
31. التجاني : المصدر السابق. ص.320.
32. ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . تحقيق ودراسة : التهامي نقرة ، عبدالحليم عويس . دار الصحوة . القاهرة . ص.41.
33. عبد الحكيم العيفي: المرجع السابق . ص.321.
34. مُجَد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية . المرجع السابق . ص.150.
35. التجاني : المصدر السابق. ص.321.
36. ابن الآثير : المصدر السابق . ص.489.

37. مُجَّد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص 150، 151.
38. ياقوت الحموي: المصدر السابق. م. 5، ص 231.
39. مُجَّد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص 151.
40. مُجَّد سهيل طقوش: المرجع السابق. ص 91.
41. حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس. دار الكتب الشرقية. تونس. (د.ط). (د.ت). ج 3، ص 81.
42. مُجَّد عبد الستار عثمان. العمارة العباسية والفاطمية. المرجع السابق. ص 28.
43. حسين مؤنس: المساجد. عالم المعرفة. الكويت. (د.ط). (يناير 1981). ص 30.
44. صلاح أحمد البهنسي. مراجعة أحمد عبدالرزاق أحمد: عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي. جامعة عين شمس. القاهرة. (د.ط). (د.ت). ص 65، 66.
45. مُجَّد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية - المدنية الدينية. دار القاهرة. القاهرة. (د.ط). 2006، ص 36.
46. ياقوت الحموي: المصدر السابق. م. 5، ص 231.
47. عبد الحميد حسين حمودة: المرجع السابق. ص 405، الإدريسي: وصف افريقية الشمالية والصحراوية. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. هنري بيريس. مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية. الجزائر. (1957م). ص 79.
48. مُجَّد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية - المدنية الدينية. المرجع السابق. ص 41، 42.
49. مُجَّد سهيل طقوش: المرجع السابق. ص 91.
50. التيجاني: المصدر السابق. ص 322.
51. المراكشي: الإستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب: من كتاب القرن السادس هجري (12م). نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية. المغرب. (د.ط). (1985). ص 118.
52. مُجَّد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية - المدنية الدينية. ص 40.
53. التيجاني: المصدر السابق. ص 323.
54. مُجَّد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية - المدنية الدينية. ص 8.
55. ابن حوقل: المصدر السابق. ص 73.

56. الإدريسي: المصدر السابق، ص 79 .
57. المراكشي : (1985). المصدر السابق. ص 118 .
58. القاضي النعمان :افتتاح الدعوة . الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية . تونس ، الجزائر. (ط2). (1986). ص 327، 328.
59. ياقوت الحموي: المصدر السابق .م.5. ص 231 .
60. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المرجع السابق. ص 206 .
61. ابن عذارى: المصدر السابق . ج.1. ص 258، 259 .
62. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المرجع السابق. ص 208.
63. محمد عبد الستار عثمان: العمارة الفاطمية الحربية-المدينة الدينية . المرجع السابق . ص 24.
64. صلاح أحمد البهنسي: المرجع السابق . ص 62، 63 .